**المحاضرة السادسة:**

**أحمد شوقي ومرحلة مابعد البارودي(1)**

**توطئة:**

أحمد شوقي "أمير الشعراء"، وزعيم المجددين في الشعر العربي الحديث". ولد في مهد من العز والترف والثراء في نعمة الخديوي إسماعيل باشا، سنة 1868 بالقاهرة، لأب وأم تنحدر إليهما عناصر مختلفة، فأبوه يجري فيه الدم العربي والكردي والشركسي، وأمه تركية، وجدته لأمه يونانية، "وهذه كثرة إنسانية لا يأتي منها شاعر إلا كان خليقا أن يكون دولة من دول الشعر"، وقد قال معترفا بنسبه: "أنا –إذن عربي، تركي، يوناني، شركسي...".

ترعرع شوقي في بيئة ارستقراطية، مرسومة جوانبها في جنبات شعره، فلا يخلو بيت من أبياته الشعرية من هذه الوجهة، خصوصا في المرحلة الأولى من حياته، وفي سن الرابعة بدأ يختلف على الكُتَّاب، ودخل مدرسة (المبتديان)، وشَقَّ طريقه في طلب العلم والأدب، يحاول أن يكون، ذلك، صدى إيجابي لعبقريته، التي ما فتئت تفرض عليه اختيار هذا الدرب الوعر مسالكه، فكان أن تقدم خطوة فخطوة في مسيرة الانتقال الأولى، لأنه بدأ دراسته بالمدرسة الابتدائية فالثانوية، وهذا دليل على أن فيه "السر المتحرك الذي لا يقف، ولا يكل، ولا يقطع نظام عمله، كأن فيه حاسة نحلة في حديقة، ويكبر شعره كلما كبر الزمن". إنها نقطة الانطلاق، واختيار أسلوب الرحلة والترحال، وهي فرصة للاختلاط بأبناء الشعب، إلا أنه، مع ذلك، سرعان ما يعود إلى البلاط وما به من نعيم.

وجاء، بعدها، دور الأب ليرسله في سن مبكرة إلى مدرسة الحقوق، "ليدرس فيها القانون، وأنشئ بها قسم للترجمة فالتحق به، وفي هذه المدرسة تعرف إلى أستاذه، في العربية، محمد البسيوني".

هذا الأخير شهد على ذكاء شوقي وفطنته وبراعته، الأمر الذي حفز الخديوي توفيق إلى تعهده، ورعايته، وكان –حينئذ- قد بدأت شاعريته في النمو والتفجر، مُنبئة بعهد أمير للشعر جديد، تسمو فيه روح الإبداع حتى وهو في سن لا تزال تبحث عن نفسها بنفسها.

وتخرّج في قسم الترجمة عام 1887، فعينه الخديوي في البلاط، إلا أن نشأته وانتقاله الدائم، والحركية المتميزة التي تطبع شخصيته، جعلته يواصل تعليمه، إذ درس "سنتين في (منبليه)، وسنة في باريس، وأحرز إجازة في الحقوق"، وهذا، في الواقع، يفسر التمازج بين النشأة والتنقل، وبين التكوين والتحصيل. كما هيئت له فرصة الإقامة في فرنسا الإطلاع على متاحفها، ومسارحها، وآثارها الأدبية.

وصال شوقي في رحلة تأثره، وبناء شاعريته ليزور الأستانة عاصمة الخلافة آنذاك، ويزور –كذلك- انجلترا والجزائر. ورجع إلى مصر سنة 1891، وهي السنة نفسها التي توفي فيها الخديوي توفيق، فخلفه عباس حلمي الثاني، الذي جعل الأمير رئيسا للقسم الأفرنجي في حاشيته، وسرعان ما أصبح شاعره الخاص، وأضحت له الحظوة الكبيرة عنده، وهذا ما سهل له مهمة تدبير الأمور والتصرف فيها.

وقد أمضى في هذا العمل زهاء عشرين عاما. وبحكم وظيفته لم تكن لشوقي الحرية الكاملة في حياته الشعرية، وفي هذه الحقبة بالذات، حاول أن يفك هذا القيد، ويحطم سلاسل ارستقراطية البلاط، لأنه كان يؤمن بحرية الفن، والتفرغ له، فنظم شعرا على ألسنة الحيوان، تأثرا بالشاعر الفرنسي (لافونتين)، ومن ذلك قوله في قصيدته (النملة الزاهدة).

كانت بأرض نملـة تنبالـه لم تَسلُ يوما لذة البطالـه

والنمل لا يسعى إليـه الحبُّ ونملتي شَقَّ عليها الـدأبُ

فخرجت إلى التـماس القوت وجعلت تطـوف بالبيوت.

فشوقي، في هذا المقطع، صوَّر واقع المشرق –ومصر خاصة- بحال نملة اختارت الزهد في الدنيا، والتقشف في الحياة، سبيلا ومسلكا سهلا لها لاكتساب القوت بأبسط الطرق الاتكالية. ومن هنا، فإن أمير الشعراء –ككل شاعر أو ناثر- ينطلق من مادة لغوية مستعملة من قبل، إلا أنه يعيد تشكيلها بأبعاد ومعطيات أخرى تزخر بروح جديدة، مليئة بالحياة والحيوية.

وفي سنة 1894، أوفده الخديوي ليمثل مصر في مدينة (جنيف)، بمناسبة انعقاد مؤتمر المستشرقين، "فلبث شهرا في سويسرا، حتى انفض المؤتمر، ثم برحها إلى بلجيكا، وشهد (هناك) معرض انفرس ثم عاد"، ليتزوج، وهو فتى في منتصف العقد الثالث بامرأة ثرية رُزق منها بصبية وصبيين.

وبحلول سنة 1914، أعلنت الحرب العالمية الأولى، فمنع الإنجليز دخول عباس إلى مصر، وكان موجودا بمركز الخلافة (تركيا) فخلعوه من منصبه لموالاته لها، وولي مكانه السلطان حسين كامل. وأثناءها لم يسكت شوقي، بل كتب ونظم، وأطلق العنان لحنجرته كي تقول:

القوم حين دهى القضاء عقولهم كَسَـرُوا بأيديهـم لمصر غلولا

هدموا بوادي النيل ركن سيـادة لهم كركن العنكبـوت ضئيـلا

إذ يحب عباسا، ويؤثره على حسين كامل، ولعل ذلك يرجع إلى الأصل التركي لأمير الشعراء.

وكنتيجة لموقفه –هذا- أرادت انجلترا نفيه إلى (مالطا)، غير أنه "أثار إسبانية...واختار (برشلونة) له مقرا"، فراح يبكي، ويضمد جراحه وجراح الوطن البعيد، ولا أنيس له سوى الكلمات، يبنيها بناء متراصا، ويزرع فيها روح الشوق والحنين، إذ تذكر أنه في بلاد الأندلس فامتزجت شاعريته بهذا الأنين والأسى، حزنا على حال الأمة وما ألَّم بها في حاضرها، وما آل إليه ملكها في ماضيها.

وقد رجع شوقي من منفاه –بعد الحرب العالمية الأولى- إلى مصر، فوجد دماء شبابها تخضب ثراها، تريد تحقيق مبتغاها، وتبحث عن الخلاص والاستقلال. وتمثل هذه العودة، دورة ثانية من حياته الشعرية الشعورية، شعرية لأنه أعاد بناء تصور جديد لمضامين شعره، الذي اتجه إلى السياسة والاجتماع، وشعوري لتبدل منحى الشعور لديه من قيد القصر إلى حياة الشعب وآلامه.

ومن البديهي أن يكون لهذا التحول أثره في نمو المشاعر القومية في نفسيته، ونفسية أمته، فقد قال –يوما- مناجيا وطنه:

ولو أني دُعيت لكنت دينـي عليه أقابل الحتم المجابـا

أدير غليه قبل البيت وجهي إذا فهمتُ الشهادةَ والمتابا.

فهذان البيتان دليل على قدسية الوطن عنده، وحبه له، ومن غير سأم أو ملل.

وشوقي –إلى جانب ذلك- لم يكن محصورا بحدود القطرية الضيقة، بل كان شاعرا تقرأ بين سطور شعره أبعاد الإخاء والقومية، فهو على حد تعبير حسين هيكل "المعبّر عن الميول والآمال الكامنة في نفوس المسلمين جميعا، لا في نفوس المصريين وحدهم، وحرصهم على وحدتهم وكيانهم"، وهذه الجوانب أخذت تنمو باطراد لتتجه إلى العرب –جميعا- وإلى المشرق المسلم برمته.

وعُرف –أيضا- بروح التسامح الديني، وبعاطفته الشرقية الأخوية، إذ ألبس قصائده ثوب العروبة والقومية المتجذرة عروقها، فيقول:

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام إخوان.

فهذا البيت تفيض ألفاظه، بمعاني الوحدة العربية، وتزخر بُناه بدلائل الاشتراك الموحدة في الأخوة، والآلام.

وشوقي كان، إلى جانب ذلك، ذا نزعة وطنية إقليمية، يتميز "بسرعة التجاوب مع مجتمعه، وحرصه على تصوير نزعاته ومشاعره"، وباعتزازه بماضي مصر، على اختلاف عصورها وحضاراتها، وكنتيجة لذلك نظم أربع قصائد بمناسبة (توت عنخ آمون).

وبهذا الشعر وغيره، احتل شوقي مكانة رائدة في سينيه الأخيرة، وكرّم في حلف أقامته له الحكومة المصرية والبلاد العربية، سنة 1927، وبايعوه أميرا للشعراء بعد أن كان شاعر الأمير، وفي خلال زمن الحفل تدخل حافظ إبراهيم، ورفع لواء شوقي عاليا:

أميرَ القوافي قد أتيت مبايعـا وهذه وفود الشرق قد بايعت معي.

وقد كان لتاج الإمارة الأثر الكبير في قيامه بمحاولة تجديدية، هي إدخال الشعر التمثيلي إلى الشعر العربي، فنظم مسرحيات عديدة، منها (مصرع كليوبترا) و(قمبيز)، ثم (علي بك الكبير) وغيرها.

**التقاليد الشعرية لدى الشعراء المحافظين:**

هكذا واستنادا على ما مضى فإن هذه المرحلة تميزت فنيا بالنتاج الشعري بتراكم شعري لشعراء آخرين كذلك ومنهم حافظ إبراهيم(1872-1932) ومعروف الرصافي(تـــــــ 1945)، اللذين بقيا محافظين على بعض الخصائص الفنية المميزة للقصيدة التقليدية، ومنها على الخصوص وحدة البيت أو الانتقال المفاجئ من الموضوع الأصل إلى موضوعات أخرى فرعية، وهو ما يفقد القصيدة تلاحمها العضوي.

ويمكن التمثيل ههنا بقول أحمد شوقي في (نكبة دمشق)[[1]](#footnote-2):

سلام من صبا (بردى) أرق ودمـــــــع لا يكـفكـف يا دمشق

ومعذرة اليـــــــراعة والقــــــــوافي جلال الرزء عن وصــف يدق

وذكرى عن خواطرها لقلبي إليــــــك تلفـــــــت أبـــــــدا وخفـــــــــق

وبي مما رمتك به الليـــــالي جراحات لها في القلب عمــــق

التي يمكن التصرف في أبياتها حذفا أو تقديما أو تأخيرا دون أن يتأثر معنى القصيدة العام لانبنائها على وحدة البيت، وهيكلية القصيدة التقليدية من وقفة بكائية أو وصف فيه حسرة وألم، على أن ذلك لا ينقص ممّا للقصيدة من قيمة فنية وتاريخية شاهدة على ما ألمّ بدمشق. وإذا كان شوقي قد تناول في ديوانه الأغراض المعروفة عند الشعراء القدامى من مدح ووصف وتشبيب حكمة فإنه مع ذلك قد خاض في موضوع الوطنية ومن أمثلة ذلك قوله حين كان في منفاه[[2]](#footnote-3):

اختلاف الليل والنهـــــــار ينســـــــــي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وصفـــــــا لي مـــــلاوة من شبـــــــاب صورت من تصورات ومسّ

عصفت كالصبا اللعوب ومرت سنـــــة حلــــــــوة ولذة خلــــــــــــــس

سلا مصرَ : هل سلا القلبُ عنها أَو أَسا جُرحَه الزمان المؤسّي؟   
 كلما مرّت الليالي عليه رقَّ ، والعهدُ في الليالي تقسِّي  
 مُستَطارٌ إذا البواخِرُ رنَّتْ أَولَ الليلِ، أَو عَوَتْ بعد جَرْس

ويبقى الشاعر مترقبا بارقة أمل للعودة إلى أرض الوطن في انتظار سفينة النجاة:  
 راهبٌ في الضلوع للسفنِ فَطْن كلـــــما ثُرْنَ شاعَهن بنَقسْ   
 يا ابنة َ اليمِّ ، ما أبوكِ بخيلٌ ما له مولع بمنع وحبس   
 أحرامٌ عَلى بَلابِلِهِ الدَو حُ حَلالٌ لِلطــيرِ مِن كُلِّ جِنسِ   
 كُلُّ دارٍ أَحَقُّ بِالأَهلِ إِلّا في خَبيثٍ مِنَ المَذاهِبِ رِجسِ

فالقصيدة على ما فيها من مظهر تقليدي بنائي لافت يتمثل في التصريع القائم على التجانس الصوتي بين عروض البيت الأول وضربها إلا أنها تضمنت معانٍ جديدة متصلة بواقع الشاعر بعيدا عن وطنه، ولهذا لم يجد لنفسه بديلا عنه في واقعه، لذلك يبدو أكثر وطنية وارتباطا بأرضه في قوله[[3]](#footnote-4):

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

هَفا بِالفُؤادِ في سَلسَبيلٍ ظَمَأٌ لِلسَوادِ مِـــــــــــــــن عَينِ شَمسِ   
 شَهِدَ اللَهُ لَم يَغِب عَن جُفوني شَخصُهُ ساعَةً وَلَم يَخلُ حِسّي

1. - أحمد شوقي: الشوقيات، ط01، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج02، د/ ت، ص74. [↑](#footnote-ref-2)
2. -أحمد شوقي: المصدر نفسه، ج02، ص45- 46. [↑](#footnote-ref-3)
3. - الشوقيات، مصدر سابق، ج 2، ص46. [↑](#footnote-ref-4)